كيفية توجيه الطفل وتربيته مهمة أساسية لرسم مستقبله

ماذا يقرا ابناؤنا .. وماذا يشاهدون .. وماذا نلقي على اسماعهم من حكايات وقصص؟

وماذا يناسب الطفل في كل مرحلة من عمره؟

الاسئلة ليست سهلة. وربما لا تتوقف الام التي تعتمد على استقبال تلقائي لطفلها لما ينشر في الاسواق ولما يذيعه التلفزيون ولكن ...لان لكل عمر ما يناسبه ...ولكل ثقافة سلبياتها فان عملية التدخل من جانب الاسرة ... اصبحت ضرورية

السوبرمان

يوجد حاليا ما يسمى بقصص السوبرمان وهذه القصص من حيث المضمون مليئة بالاعجاز . والمغامرة والمفاجآت والبطل فيها شخص قوى لدرجة تفوق اى تصور انساني. لكن قوته للاسف تكمن في جسده وليست في قلبه او عقله او ثقافته.

البطل الشرير

النوع الثاني الذى يقدم للطفل هو حكايات وقصص المغامرات البوليسية.

يلاحظ في هذه النوعية ان كل جريمة تتم يحرص مؤلفها ان يقول لنا في النهاية ان الجريمة لا تفيد. يقولها في اخر خمس دقائق او اخر حلقة. اى بعد ان يمر الطفل باحداث ومواقف تترسب في اعماق الصغير ويتحول حيالها الى انسان عاجز تماما عن التمييز.

- هذه القصص ايضا تحرص على ان ترى الطفل نوعية الحياة التي يعيشها هؤلاء المنحرفون : حياة مرفهة سيارات بها تليفونات خاصة فيلات انيقة. مسابح. فتيات جميلات وبوابات مكهربة. سطوة. نفوذ واجهزة تجسس. عالم غريب مذهل يفقد الطفل القدرة على تمييز حقائق الحياة اليومية ووضع حلول متفائلة تتمشى مع قيمه وقواعد مجتمعه الاخلاقية.

اننا من خلال هذه القصص وتلك المسلسلات نعطي الطفل والمراهق صورا مضللة عن حياة الشر ونحببه في هذه الحياة ونحيل المجرم من خلال المغامرة الى بطل ونعطيه ـ وهذا هو اخطر ما في الموضوع ـ درسا في الجريمة الكاملة : كيفية التنكر. سرقة الخزائن....

حواديت "الجدة" اكثر نفعا من المسلسلات الاميركية

وهكذا يستسهل الشباب المراهق طريق الجريمة خاصة وان المسلسلات تتكفل بكل الضمانات التي تكفل عدم التوصل اليه.

المبالغة التاريخية

يبقى لدينا النوع الثالث الا وهو القصص التاريخية.

وهذه النوعية بالذات هي المفتاح الحقيقي لخلق شخصية عربية تهتم بتراثها وتعتز بتاريخها الى جانب انها تعج بالمواقف العظيمة والقيم الرائعة وحتى تلك التي تستقي مادتها من التاريخ الغربي لها نفس الاهمية. فنضال الابطال هنا او هناك من اجل ارساء قيمة معينة والاصرار على ذلك الى حد التضحية بالنفس او المال شيء جيد بالفعل.

ولكن .. يجب ان يفهم الناشئة ان الابطال هم في النهاية بشر. بشر تعرضوا للفشل والاحباط وعانوا ، لكنهم احتملوا ولم يتوقفوا. وانهم جاهدوا نوازع الضعف والشر فيهم قبل ان يجاهدوها في غيرهم. والواقع ان احسن ما في القصص التاريخية هي امكانية تقديمها لكل الاعمار. فطفل السادسة مثلا يمكن ان ياخذ فكرة موجزة جدا عن صلاح الدين طفل العاشرة يمكن ان نضيف له جرعة اكبر قليلا عن نفس البطل بحيث تتناسب مع قدرته على الاستيعاب ومع ثروته اللغوية وتجاربه الحياتية. ثم نزيد الجرعة اكثر فاكثر كلما كبر ونمت مداركه. جرعة هي الحياة بكل ما فيها من حلاوة ومرارة. حتى اذا ما وصلنا الى مرحلة المراهقة قدمنا له الجرعة متكاملة العناصر جرعة تحوى المغامرة. العنف. الشجاعة الحب. القيم. وقد ثبت بالبحث والدراسة ان الاطفال يهتمون بطفولة البطل اكثر من اية مرحلة اخرى. بينما يهتم المراهقون بالجزء الخاص بشبابه وفتوته وانجازاته.

لكي يخاطب الكاتب الطفل لا بد ان يكون طفلا لبعض الوقت

حكايات الجدة

وهناك نوعية اخرى من الحكايات تعد من المصارب والقنوات الثقافية الجيدة التي تمد الطفل بالمعرفة والقيم البناءة الا وهي الحكايات الشعبية التي يتوارثها الاباء والامهات عن الاجداد. والحكاية الشعبية صورة ادبية للتراث الانساني وهي ليست من انتاج مؤلف معين. لقد ساهمت في بنائها الفني والدرامي اجيال متعاقبة. ومعظم هذه الحكايات لا يعرف متخصص حتى الان ان كان لها اصل تاريخي ام لا. ومع هذا فهي حكايات تداولتها الشعوب جيلا بعد اخر، وكان كل جيل يضيف اليها او يحذف منها حسب ما يتلاءم مع القيم السائدة لذا يستمتع بسماعها الكبير والصغير معا لما تتميز به من بساطة وعذوبة وتصوير حي صادق لاحاسيس الانسان البكر. وليست هناك امة على وجه الارض الا ولها حكاياتها الشعبية المعروفة لكن هذه الحكايات تختلف من حيث المحتوى من مكان لاخر تبعا للاحتياجات النفسية والقومية والسياسية، لكن ايا كان الاختلاف فكل الاطفال يحبون الاصغاء لهذه الحكايات لانها اقرب الى طبيعتهم الفطرية الساذجة التي تتحدث عن الحيوانات والطيور وعالم الجنيات والملاحم والتي تلغي ابعاد الزمان والمكان وتفيض بمشاعر الوفاء والتضحية ليعلو صوت الحق، وينتصر الخير دائما في النهاية الى جانب هذا يجد الطفل في الحكايات الشعبية فرصته للتعرف على مظاهر الطبيعة كما يتعلم من خلالها اللغة واسرارها فيتولد لديه الذوق الادبي.

الخطورة في قصص السوبر مان .. ولماذا؟

ان الخطورة في هذه النوعية تكمن في تقديمها للبطل الذى لا يقهر والواقع يقول انه ما من كائن على وجه الارض لا يقهر ابدا . لا بد من لحظة او يوم يشعر فيه بالعجز والاحباط والبطولة هنا تكمن في قدرة الانسان على تحويل العجز الى قوة والفشل الى نجاح.

البطولة هي قوة الروح والارادة وهذا ما يميز البطل عن غيره ونحن بتقديمنا للبطل الذى لا يقهر نعزل الطفل عن واقعه وعن كل الحقائق الموجودة في عالمه والتي يجب ان نعده نفسيا وعقليا لمواجهتها.

وتاثير هذه القصص يتعدى الانفصال المؤقت عن الحياة ويتجاوزه الى ما هو اخطر بما تنطوى عليه من انماط سلوكية تترسب في نفسية الطفل نتيجة لمثل هذه المؤثرات في اتجاهات فردية او عدوانية نحو الحياة والناس بل وقد تدعم لديهم اتجاهات هروبية بسبب ما تقدم من حلول خرافية باهرة

وخلابة لمشاكل تحتاج العقل والمنطق لحلها وليس هناك ادل على تاثر الطفل بهذه النوعية من الحوادث المؤسفة التي تعرض لها اطفال صغار عندما حاولوا تقليد الرجل الالي فالقوا بانفسهم من اعالي بناياتهم وهم يصرخون

.. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى تصديق الطفل لما يراه بل وانبهاره الشديد بهذا الذى رآه ومحاولته تقليده.

الكاتب .. الطفل

ولكن .. هل يستطيع اى كاتب ان يخاطب الطفل؟

ليس بامكان اى كاتب ان يكتب له. كاتب الطفل يجب ان يكون طفلا حقيقة في داخله.

طفلا نقيا وبريء الفؤاد. كاتب الاطفال يجب ان يجند شعوره وثقافته التربوية في تحسس ضميز النشء وان يعبر عنهم بالتصاقه الدائم بهم وان يشعرهم بثقته في مقدراتهم وامكانياته. عليه ان يكتب للصغار دون استعلاء وان يضع في حسابه قبل ان يخط كلمة واحدة ان الطفل تركيبة معقدة رغم بساطته وطهارته. فهو مزيج من التفكير المنطقي واللامنطقي والاشياء البسيطة او المركبة وانه يجب ان يعامل من خلال القصة باحترام يتناسب مع سنه. وان لا يلجأ الى الالفاظ الغريبة التي يستعملها الكبار.

واخيرا فان الام، مثل الكاتب، عليها ان تفهم طفلها ليختار ما يناسبه من قراءة ومشاهدة ومصادر معرفة فكل ذلك في النهاية هو ما يصنع شخصية الطفل وطريقة تفكيره وتوجه الى حد كبير سلوكه ونظرته للحياة.

ع العافية

تطرح قضية الكتابة للاطفال نفسها من جديد هذه الايام مع اقتراب اليوم العالمي للطفل (الاول من حزيران) . ليس على صعيد الوضع الثقافي والادبي عندنا في الاراضي المحتلة فقط، بل على صعيد العالم العربي ككل

لا ارغب بطرح التساؤل الذى بات تقليديا "ماذا اعددنا لاطفالنا، في الاول من حزيران؟!" لان هذا التساؤل يدخل في اطار العمومية والشمول، حتى انه يمتد ليشمل كافة جوانب المعاناة على امتداد الوطن العربي باكمله.

فالطفل، اليوم، هو الشخص نفسه الذى يتهدده الجوع والفقر والمرض والسجن والمطاردة على ايدى حكام بلاده الذين يغازلون الانظمة الاستعمارية، ويشيحون بوجوههم عن مشاكل شعبهم.

وعلى صعيد الكتابة للطفل، التي تتطلب ميزات خاصة من الضروري توافرها في الكاتب، فقد اهتمت الكاتبة روضة الهدهد والكاتب فخرى قعوار، في الاردن، بهذا المجال ـ اذ ادركا الفراغ الهائل في مكتبة الطفل وانجزا مجموعات قصصية للاطفال ، تم التركيز فيها على الماضي النضالي، لدفع الطفل الى التشبث والارتباط بماضيه، وبالتالي دفعه لتثوير حاضره، على المستوى البعيد.

وفي سوريا، يقدم الكاتب الشهير، زكريا تامر، مجموعة من الاعمال الادبية التي تغطي جزءا هاما من رفوف مكتبة الطفل الخاوية. .وبعد،

لا تطمح هذه الكلمة القصيرة الى استعراض الواقع الادبي للطفل العربي، بقدر ما تود التنبيه مجددا الى ضرورة الاهتمام بهذا اللون الادبي الهام.

× × ×

هناك صعوبات ذاتية وموضوعية تعترض طريق السير في مخطط الكتابة للاطفال. فمن جهة يجب معرفة نفسية الطفل المتلقي لما يكتب من كافة جوانبها، رغباته، حاجاته، مستواه العقلي واللغة القادرة على دفعه للعيش في جو العمل الادبي دون ادنى شعور بالاغتراب والملل.

ومن الجهة الاخرى، فان عملية وضع الكاتب لنفسه في هذه المرحلة التي يستفيد فيها من خبراته الخاصة وذكرياته عنها بالاضافة الى خبراته الثقافية والنفسية، تتطلب مجهودا كبيرا، يجب بالضرورة، الا تتناقض مع لقمة عيش اطفاله وواقعه الاجتماعي.

من هنا تاتي صعوبة كتابة ادب للاطفال، بالمعنى الحقيقي والمطلوب له عندنا في الاراضي المحتلة.

× × ×

حدثني صديق ممن اثق بروايته، ان احد الكتاب العرب خارج الاراضي المحتلة، فغر فاه اندهاشا عندما عرف منه اننا هنا نكتب دون تسخير كتابتنا كمصدر عيش لنا، ووسيلة رزق!! واعتبر من يمارس الكتابة "مناضلا حقيقيا" على ذلك!

توجد عندنا في الوطن المحتل مواهب قادرة على العطاء والانجاز، وهي مطالبة بالرغم من كل ما قيل بالانجاز. وهي مطالبة بالاستمرار في السير على طريق الابداع والاهتمام بالكتابة للاطفال ووضعها في المقام الاول من الاهتمام.

هذه دعوة، اسجلها بمناسبة اقتراب يوم الطفل، دون الالتفات الى انتظار مقومات دعم هذا الانتاج ماديا، لانه من التناقض توقع ذلك في حين ترسم الخطط لمحاصرة اصحاب هذه الاقلام نفسها، بالرغم من التغني "بانجازاتها" وبصمود اهلها.

لقد بادر الكاتب الدكتور محمد شحادة في عام الطفل الدولي (١٩٧٩) ، وقام بترجمة مجموعة من الحكايات والقصص للاطفال، واصدر الشاعر علي الخليلي مجموعة اخرى. وحاولت الزميلة سامية فارس الادلاء بدلوها في هذا المجال، بالرغم من اخطاء الخطوة الاولى الطبيعية، بالاضافة الى بعض المحاولات الفردية الاخرى التي لم يضم انتاجها كتاب واحد. وغير هذه النتاجات وما كتبته المرحومة باسمة مرتضى حلاوة، لا يوجد شيء آخر.

× × ×

ان الانجازات القليلة الموجهة للاطفال في الاراضي المحتلة تستحق الفخر والاعتزاز، لانها انتزعت من فم هذا الواقع المر انتزاعا صعبا.

فالى كل هذه الاقلام، والى تلك التي ستتحرك في هذا المضمار.. الف تحية.

ـ ابو مكسيم ـ